

بريطانيا وسر قوتها

من حق حليفتنا العظيمة علينا أن نتناولها بشيء من البحث بين حين وحين . فقد ارتبط تاريخنا القومي بتاريخ بريطانيا وإمبراطوريتها ارتباطاً مباشراً خلال هذه السنوات السبعين الأخيرة ، وارتباطاً غير مباشر فيما سبق ذلك من سنين . بل إن ما بيننا وبين تلك البلاد من أسباب إنما يرجع إلى أيام أن سعى البريطانيون إلى أرض مصر يحاربون على أبوابها أسطول نابليون أيام الحملة الفرنسية ولقد كنا ننظر إلى بريطانيا خلال هذه السنوات الطويلة نظرات تختلف بين الصداقة حيناً والعداء أحياناً ؛ حتى استقرت بنا الحال آخر الأمر فاتخذنا منها حليفة عظيمة ، أخلصنا لها الصداقة في كثير من أوقات المحنة وساعات الشدة ، وإن كانت لم تذكر لنا كل ما ينبغي أن تذكره أيام السلم وساعات الرخاء . ولسا يد في هذا المقال أن نتناول ما بيننا وبينها من أسباب قد يختلف في تقديرها الناس ، فيرى فريق منهم أنها تقوم على أساس من المصالح الحقيقية والمنافع المتبادلة ، ويرى فريق آخر أنها تقوم على صداقة من ذلك النوع الذي قال فيه الشاعر إنه ليس منه بد . وإنما نود أن نسجل أن هذه الأسباب والصلوات ، مهما يكن مردها ومرجعها ، فإنها تفرض علينا — ولمصلحتنا نحن — أن نحاول أن نتعرف شيئاً عن تاريخ بريطانيا الحديث ؛ لعلنا أن ندرك بعض مصادر القوة وأسرارها في حياة هذه الحليفة التي كان لها أثر خطير في توجيه كثير من شؤوننا القومية في العهد الحديث . وخير لنا فيما نحن بسبيله من جهاد أن نكون بصيرين بهذه القوة التي ندافعها وتدافعنا من أن نعض الطرف عن أسرارها ، ولا نبالي بمعرفة شيء عنها .

وبريطانيا جزيرة صغيرة ، تجاورها جزيرة أخرى أصغر منها ، وعدد من الجزر المنتشرة حولها في الجنوب والغرب والشمال . ولا تكاد تجاوز مساحتها جميعاً ١٢٥,٠٠٠ ميل مربع ، أو أقل من $\frac{1}{4}$ % من سطح اليابس ؛ ولا يكاد

سكانها جميعاً يجاوزون ٥٠ مليوناً أو حوالى ٢٤ ٪ من مجموع سكان الأرض .
وتقع تلك المجموعة من الجزر فى منطقة نائية بالنسبة للعالم القديم ؛ ففى فى
أقصى شمال أوروبا الغربى ، بعيدة عن قلب العالم ، حيث نشأت الحضارات القديمة ،
وحيث ظهر التاريخ وازدهرت المدينة فى وقت كانت فيه تلك الجزر فى دور
بدائى ، وكان أهلها يعيشون على هامش الحياة ، يسكنون الكهوف أو ما يشبه
الكهوف ، ويعيشون على صيد البر والبحر ، وعلى شئ قليل من الجمع والالتقاط ،
قد ازووا فى جزرهم النائية بعيداً عن العالم ، وقبعوا هناك لا يعرفون شيئاً عن
الناس ، ولا يكاد الناس يعرفون عنهم شيئاً .

وبقيت الحال كذلك حتى عهد الكلتيين الذين سبقوا الرومان ووطدوا
العلاقة بين بعض أجزاء بريطانيا الغربية وبين شمال فرنسا وغربها . ثم جاء
الرومان أنفسهم فغزوا بريطانيا ، وفتحها يوليوس قيصر ، وامتد استعمار
الرومان حتى أطراف أسكتلندة الجنوبية ، ونفذت معه بعض معالم المدينة
الرومانية إلى الجزر البريطانية ، ثم تلا ذلك اتصال متعاقب بين الجزر والقارة ،
فوصلت بعض موجات من الغزاة والفاحين والمهاجرين من الزمندين
والسكسونيين وغيرهم . ومع ذلك كله فقد بقيت الصلة بين بريطانيا والقارة
ضعيفة محدودة ، حتى جاءت النهضة الحديثة ، فأخذت بريطانيا معالمها عن
القارة ، وعاصر ذلك إلى حد كبير ظهور الاستكشافات البحرية إلى أمريكا والهند
وغيرها من بقاع الأرض فيما وراء البحار ، وسعت أوروبا حينئذ إلى أن تتصل
بالعالم الخارجى لتتجر معه أو لتستعمره . وهنا برزت قيمة الموقع الجغرافى
للجزر البريطانية كمحطة عند باب أوروبا الخارجى فى عرض المحيط ، وبدأت
بريطانيا رويداً رويداً تترعم حركة التوسع الأورپى إلى الخارج ، فبنت قوتها
البحرية العتيدة ، وتغلقت على الأسبان والهولنديين وغيرهم ممن حاولوا التحكم
فى مخرج البحر ومسالكه . ثم جاءت فى أعقاب ذلك النهضة الصناعية المعروفة ،
التي ساهم فيها العلم والتطبيق العملى ، فظهر لون جديد من المدينة المادية التي
تستند إلى استغلال موارد القوى المحركة والصناعة الآلية فى نطاق متسع . وهنا
أيضاً برزت قيمة بريطانيا التي جمعت إلى غناها بالموارد المعدنية الصناعية
اتصالها الوثيق بالعالم الخارجى ، حيث يمكن استغلال المواد الخام التي
لا تنتجها أوروبا ، حيث يمكن تصريف المصنوعات الحديثة فى أسواق لم يكن

من العسير استغلال أهلها في تجارة ، لا يمكن أن يستوى فيها جهل المشتري وغفلته ، بعلم التاجر وفطنته . وهكذا انتهى الأمر بأن غدت بريطانيا دولة قوية ، بل نواة لإمبراطورية امتدت فيما وراء البحار ، حتى صارت أوسع إمبراطورية عرفها التاريخ .

وقد لا يكون من اليسير تحليل هذا الدور الكبير الذي كتب لبريطانيا وجزرها الصغيرة أن تلعبه في تاريخ العالم الحديث ، والذي لا يتناسب مع ما نعرف عن هذه الجزر من صغر المساحة وقلة السكان ؛ ولكننا مع ذلك نستطيع أن نعرض لعدد من العوامل الأساسية التي مهدت لهذا الدور . وبعض هذه العوامل طبيعي ، يتصل بطبيعة الجزر نفسها وبمواردها الطبيعية ومناخها وموقعها الجغرافي وغير ذلك ، وبعضها الآخر بشري يتصل بالسكان وتكوينهم ومقدرتهم على استغلال ظروف البيئة والموقع الجغرافي . بل إن بعض تلك العوامل لا يتصل ببريطانيا ذاتها ، ولا بأهلها وحدهم ؛ وإنما يمتد إلى خارج الجزر ، في القارة المجاورة ، أو بعيداً عنها فيما وراء البحار .

والذي يدرس الجزر البريطانية دراسة مفصلة لا يلبث أن تأخذه حقيقة جغرافية رائعة . . . ذلك أن هذه الجزر على صغرها معقدة التركيب والتكوين إلى حد غريب ؛ فهي مكونة من صخور مختلفة ، يرجع أقدمها إلى أبعد الأزمنة الجيولوجية ، ويرجع أحدثها إلى الزمن الجيولوجي الأخير ، وهي تكاد تشمل الأزمنة والأعصر الجيولوجية جميعاً . ثم إن هذا التنوع في أعمار الصخور وعصور تكوينها يزيد من تعقده أن الصخور من أنواع مختلفة ، منها الناري والرسوبي والمتحول ، ومنها الطيني والرملى والجيري وغير ذلك . وقد كان لهذا التنوع والتعقيد في أنواع الصخور وأعمارها ، وكذلك في تركيبها وبنيتها ، أثره الكبير في غنى الثروة المعدنية وتوافرها . ومن المسلم به أنه كلما تباينت الصخور وتنوعت زاد احتمال العثور على المعادن ذات القيمة الصناعية بين طبقاتها . ولو أن بريطانيا كانت بسيطة التكوين نسيباً ما توافرت لها كل تلك الثروة المعدنية التي كانت أساس النهضة الصناعية في العهد الحديث . . . بل ما توافرت لها بعض المقومات الاقتصادية الأخرى التي ترجع إلى التكوين الجيولوجي ، ومنها جودة التربة الركامية وغيرها في المناطق السهلية ، والجهة الجنوبية الشرقية من إنجلترا بصفة خاصة ، مما يسر لبريطانيا في بعض فترات أن

تضاعف إنتاجها الزراعي في الاغذية ، كما حدث إبان هذه الحرب المنتهية .
 وإلى جانب هذا التنوع في التكوين الجيولوجي للبيئة البريطانية ، هناك
 تنوع آخر في التكوين البشري لسكان تلك الجزر . فبريطانيا وأخواتها جزر
 يفصلها عن القارة بحر ضيق ، عبرته دفعات متتالية من المهاجرين الذين استقرت
 بهم الحال هناك ؛ فهي لم تكن في تاريخ عمرانها الجنسي مجرد معبر أو طريق
 هجرات ، كما حدث في بعض جهات القارة ، وإنما تجمعت فيها العناصر المختلفة ،
 واختلط بعضها ببعض ، حتى إنه ليقال عن البريطانيين كما نعرفهم الآن إنهم
 يتكونون في الأصل من ثماني سلالات متباينة ؛ فمنهم النوردي الأشقر المشوق
 القامة ، والذي أتى من اسكندناوة وأقصى شمال أوروبا ؛ ومنهم الآبيي الربعة
 العريض الرأس ، الذي أتى من وسط القارة ؛ ومنهم عنصر البحر الابيض
 المتوسط المعتدل القوام الاسمر الشعر والبشرة ، والذي أتى من جنوب أوروبا
 الغربي ، ووصل بريطانيا دائراً مع البحر والساحل ؛ ومنهم السكسونيون
 والترمنديون وغيرهم من العناصر المختلطة الدم والتكوين ، والتي لا يتسع المقام
 هنا لسردها وذكر أصولها وأنسابها وطرق هجراتها قبل أن تبلغ هامش القارة .
 ولكن الشيء المهم أن هذا التنوع الجنسي في تكوين البريطانيين معناه تنوع
 الملكات والاستعداد بين سكان الجزر . ومع أن هذا التنوع والاختلاط كان
 مصدر تفكك وضعف بين السكان في العهود القديمة وبعض العهود الوسيطة ،
 فقد استحال بالتدرج إلى امتزاج وتزاوج بين العناصر المختلفة ، تحقق معه في
 العهد الحديث مايسميه البريطانيون «الوحدة في التنوع» unity of diversity
 وبذلك صار تنوع العناصر واختلاف السلالات بين سكان الأمة المتحدة أو
 المملكة المتحدة في انجلترا واسكتلندة وبلاد الغال وإيرلندة (أو جزر منها)
 وبقية الجزر المتناثرة ، عامل قوة وتماسك في العهد الحديث ، بعد أن كان عامل
 ضعف وتفكك في العهود السابقة .

وهنا لا بد لنا من أن نشير إلى نظرية جنسية كثر الكلام عليها في السنوات
 الحديثة . تلك التي تقول بضرورة نقاء الجنس أو السلالة ليصبح التكوين القومي
 للأمة متجانساً قوياً . وقد حاولت الفلسفة النازية في ألمانيا الهتلرية أن تطبق
 تلك النظرية في شيء كثير من المغالطة العامية ؛ فادعت أن الالمان آريون ، أو
 أنهم على الأقل ينبغى أن يكونوا جميعاً من الآريين الخالصين . ومع أن لفظ

« أرى » هذا ليست له على التحقيق دلالة جنسية صادقة ، نظراً لاختلاط الدماء والسلالات بين المجموعة الآرية من بني البشر ، فإن الألمان النازيين قد تمكنت منهم فلسفة النقاء الجنسى إلى درجة التعصب ، فعملوا على إقصاء كثير من العناصر غير الآرية ، بصرف النظر عما قد يكون لها من قيمة في تكوين الأمة الألمانية . أما البريطانيون فقد كانت نظريتهم على تقيض ذلك تماماً ، فهم قد استمسكوا « بوحدهم المتنوعة » ، وهم قد نظروا إلى اختلاط الدماء فيهم على أنه مصدر قوة يعتر بها ويحافظ عليها ؛ ولا بأس — بل قد يكون من الخير — أن يُداوم على تغذيتها بدماء جديدة من الخارج . ولسنا بحاجة إلى أن نقول إن الأيام والتجربة قد أثبتت صحة النظرية البريطانية ورجحانها على نظرية النقاء الجنسى ولعل هذه الأيام والتجارب نفسها تزيد من إثبات نظرية الاختلاط والتنوع عندما يزداد بروز قيمة هذا العامل في مستقبل بلاد كالولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتي ، حيث تنوع السلالات وتختلط الدماء إلى حد يفوق في مداه ومقدازه ما حدث في بريطانيا على نطاق مصغر .

إذن كان هناك تنوع في مظاهر البيئة الطبيعية في بريطانيا ، يعادله تنوع في سلالات السكان ومزايامهم ومؤهلاتهم . على أننا في استعراض التكوين الجنسى لسكان هذه الجزر ينبغي أن نلاحظ أثر البحر الذي يفصل بين بريطانيا والقارة ؛ فهو لم « يقطع » صلة الجزر بالقارة تماماً ، وإنما « نظم » تلك الصلة ، وكان بمثابة المصفاة للعناصر والهجرات التي تقدمت من ناحية الشرق واتجهت غرباً ، حتى إذا ما وصلت إلى شواطئ أوروبا وحافتها الغربية قعدت العناصر الخاملة والقانعة منها ولم تشأ أن تغامر فتعبّر البحر إلى جزر لا تعرف من أمرها وظروف المميشة فيها شيئاً ؛ أما العناصر المخاطرة والمغامرة فلم يقعدها البحر ، وإنما كان حافزاً لها على أن تستطلع ما وراءه . وهكذا كان البحر مصفاة كما ذكرنا ، فلم يصل إلى بريطانيا على وجه العموم غير العناصر المخاطرة التي لا ينجفها البحر ولا تقعدأ أخطاره . ولعلنا نجد في ذلك ما يفسر لنا نشاط أهل بريطانيا في العهد الحديث ؛ فهم قد تجمعوا في جزرهم ، حتى إذا ما تهيأ الظرف المناسب وحانت الفرصة المواتية بعد عصر الاستكشافات البحرية وظهور الاستعمار ، انتشر سكان بريطانيا المنحدرون من سلالة أولئك المخاطرين الأول ، فجابوا وجه الأرض ، وكونوا إمبراطوريتهم المترامية الأطراف فيما وراء البحار ،

وعمروا كثيراً من أقطار العالم الخالية إذ ذاك في أمريكا الشمالية وأستراليا وزيلندة الجديدة وجنوب إفريقيا وغيرها . . . ولو أن سكان بريطانيا كانوا كغيرهم من سكان الشواطئ المواجهة من أوروبا الغربية ما استطاعوا أن يقوموا بذلك الدور الاستعماري الفريد ، وعلى الوجه المعروف في التوسع البريطاني ، الذي كان لا بد أن يقوم به عنصر عريق في المغامرة وركوب الأخطار .

وهناك عامل آخر كان له أكبر الأثر في شحذ نشاط سكان بريطانيا ، وفي حفز همهم على العمل والكفاح الذي يتطلبه العهد الحديث وحضارته المادية . ذلك أن المناخ هنا من ذلك النوع المعتدل البارد الذي يعين على النشاط الجسماني ، ويستلزم الحركة الدائبة ؛ فلا هو مناخ حار يتراخى له الجسد ، وتخذ المهمة وتفتت الحركة ، ولو في فصل من العام ؛ ولا هو مناخ قارس يجمد له الجسم وتشل الحركة ويقف العمل في أشهر الشتاء ؛ وإنما هو مناخ بارد قد لطفه المحيط وتياراته الدفيئة ، بحيث أصبح مناسباً أشد المناسبة للعمل الدائب والجهاد الذي لا يكاد يأخذه إجهاد . وفوق ذلك كله فهو مناخ قلب ، تتنازعه مؤثرات القارة المتطرفة ومؤثرات المحيط اللطيفة ، فيؤدي ذلك إلى كثرة التغيير في ظروف الطقس من يوم ليوم ، بل من ساعة لأخرى ؛ كما يؤدي إلى كثرة الزواجع والأعاصير التي لا يستقر معها الجو على حالة واحدة . وبهذا كله أصبح الطقس غير مضمون ، ولا يمكن التنبؤ به ؛ فعلم ذلك السكان الحذر وبعد النظر ، بل عدم التواكل وشدة الاحتياط ؛ كما علمهم الجلد والمصابرة وترقب الفرج مهما طال انتظاره . وهذه كلها صفات نلمسها في الخلق البريطاني ، إذا ما نحن درسناه عن كثب . . . والمدهش الغريب — أو لعله ليس غريباً — أن البريطانيين فوق استجابتهم لمقتضيات مناخهم وطقسهم الخاص ، قد شعروا فيما بينهم وبين أنفسهم بما لهذا المناخ والطقس من قيمة ينبغي أن يُعترف بها اعترافاً شعيبياً ؛ فصار الجو والطقس حديثهم اليومي المعتاد ، لا يكاد يلقاك أحدهم حتى يبادرك بالتحدث عنهما ، حديثاً ملؤه التبرم الهادئ الرزين ، أو الرضا الذي لا ينجح إلى إسراف ، أو الأمل المقتصد في أن تتحسن الحال . ثم عامل طبيعي آخر كان له أثره الظاهر هو الموقع الجغرافي لهذه الجزر على خافة المحيط في شمال القارة الغربية . وقد أثر هذا العامل في نواح ثلاث : أولاها ما كان من أن بحر الشمال ومياه المانش لم تقطع الصلة بين الجزر والقارة ، وإنما

« نظمت » الاتصال بينهما على نحو ما فعلت الصحراء المصرية مثلا بين وادي النيل وبقية بلدان الشرق . . . وقد ترتب على ذلك أن بريطانيا أفادت من صلاتها بأوروبا، فوصلتها معالم المدنية الأوروبية من جنوب القارة ووسطها وشمالها، ولكن وصول تلك المعالم كان على دفعات متقطعة وبمقادير محدودة لم تلمس شخصية أهل الجزر، الذين استطاعوا أن يحتفظوا على الدوام بطابعهم الحضارى الخاص. ولعل هذا هو السر فيما عرف عن البريطانيين من روح التحفظ بإزاء القارة؛ فهم يتصلون بها ويأخذون عنها ويتدخلون في شؤونها بين حين وحين، ولكنهم مع ذلك لا يندمجون فيها، بل ينظرون إلى جزرهم على أنها ذات كيان مستقل وشخصية قائمة بذاتها؛ فالصالحم بأوربا يجب أن يبقى في نظرهم داخل حدود معينة ونطاق مرسوم لا يتعداه إلى خصائص الحياة البريطانية.

وأما الناحية الثانية التي أثر فيها الموقع الجغرافى للجزر البريطانية، فتمثل في أنها تقع عند أبواب القارة البحرية في الشمال الغربى. وقد انتقل مركز المدنية في أوربا الحديثة إلى سهولها الشمالية؛ وبذلك انتقل المدخل الأساسى للقارة في احتكاكها مع العالم الخارجى من سواحل البحر المتوسط وأشباه جزره إلى سواحل الأطلسى في شمال أوربا الغربى، وتحكمت بريطانيا بفضل موقعها الجغرافى في ذلك المدخل؛ فكانت مثلاً في أيام استعمار أمريكا محطة للسفن الخارجة من أوربا والمنطلقة نحو أمريكا تحمل المهاجرين، ولتلك القادمة من الغرب تحمل السلع والمنتجات التى تفرغ في موانى بريطانيا استعداداً لنقلها إلى سفن أخرى تتولى توزيعها على الموانى الأوروبية. وهكذا تولت بريطانيا وموانئها مهمة الوساطة البحرية والتجارية بين أوربا وأمريكا من جهة، ثم بين أوربا وبقية المستعمرات فيما وراء البحار من جهة أخرى. وقد عرف البريطانيون كيف يفيدون من هذه الوساطة إلى أبعد الحدود، فمما أسطوهم التجارى، وازدهرت موانئهم وأسواقهم، ومنها لندن ذاتها التى صارت فيما بعد، ولا تزال حتى يومنا هذا، مركزاً هاماً من مراكز التسويق والمعاملات التجارية والمالية . . . ومعروف أن التجارة والاشتغال بشؤون المال والقرطيس من أربح المهن وأبلغها اتصالاً بالحياة والعلاقات الدولية الحديثة. وقد استطاعت بريطانيا بسبقها في هذه الشؤون أن تدعم مركزها العالمى بين الأمم إلى حد كبير؛ وساعدها من ناحية التجارة والملاحة البحرية العالمية أن شعبها بحرى بحكم

بريطانيا وسر قوتها

تكوينه ، وأن شواطئها غنية بالمرافئ الطبيعية ، وبمصبات الأنهار الواسعة والصالحة للملاحة ، وأن تيار الخليج الدفء يدور من حولها ، فيدفي مياهها ويمنع تجمدها وعرقلة الملاحة فيها في أشهر الشتاء . وبذلك كله كانت الطبيعة عوناً للإنسان في بناء قوة بريطانيا الملاحية .

وأما الناحية الثالثة التي أثر فيها الموقع الجغرافي لجزر بريطانيا فهي الناحية العسكرية . ذلك أن البحر الذي يفصل بين الجزر والقارة أضفى على بريطانيا نوعاً من الوقاية والأمان . وقد كان على بريطانيا أن تشارك في مشكلات القارة وحروبها الكثيرة في العهد الحديث ؛ ولكنها بحكم إحاطة البحر بها ، وبما تجمع لها من قوة البحر وعُدته ، كانت تلاقى أعداءها على صفحة الماء إن كان لهم من الأساطيل ما يشجعهم على تحديها أو محاولة قهرها ، كما حدث أيام حرب الأرمادا التي شنها الأسبان ، أو فوق أرض القارة وفي ميادين الأراضي الوطيئة وشمال فرنسا وأسبانيا وغيرها إن قعد العدو في أوروبا ولم يكن له من الأساطيل ما يناظر قوة بريطانيا سيدة البحار . ولذلك كله فإن أرض الجزر البريطانية ذاتها لم تكن في يوم من الأيام ميدان حرب أوروبية ، وإنما كانت بريطانيا تتخذ ميادينها البرية في أرض غيرها من دول القارة التي أصابها الدمار والخراب مرة تلو مرة ؛ وحتى في هذه الحرب المنتهية لم يكن ما أصاب بريطانيا من جراء تغير الأحوال الموهو ظهور أثر الهجوم الجوي في الحرب إلا جزءاً يسيراً مما أصاب أرض القارة ومدنها ومرافقها العسكرية والمدنية على حد سواء . وهكذا استطاعت بريطانيا ، بفضل هذه الميزة الكبيرة ، أن تخرج من حروبها الكثيرة سليمة المرافق ، قادرة على متابعة حياتها العادية وإنتاجها الاقتصادي ، على عكس أمم أوروبا البرية التي اكتوت مدنها وقراها ومضانعها بل حقولها بنيان الحرب في الميدان ، والتي كان عليها عقب كل حرب أن تنفق السنين الكثيرة في إصلاح ما خربته الحرب قبل أن تقف على قدميها وتجاهد جهاد الأقوياء . بل هكذا كانت بريطانيا أسبق من غيرها إلى النهوض في سنوات السلم ، واستعادة أسباب الرخاء والمنافسة القوية في الشؤون الخارجية والتوسع الاقتصادي العالمي ؛ لأنها كانت تخرج في أعقاب الحروب — وعلى وجه الإجمال — دون أن تمس أرضها أو مرافقها المادية بشئ يذكر ؛ فكان كل حرب أوروبية ساهمت فيها بريطانيا — فيما عدا هذه الحرب الأخيرة — كانت تضيف إلى

مقدرتها على المنافسة العالمية بالنسبة لغيرها من أمم أوروبا المكافئة ، والتي كثيرا ما شغلها شؤونها الداخلية في أعقاب الحرب وأهنتها ، ولو لى حين ، عن أن تنافس في ميدان التوسع الأوربي خارج القارة .

إلى هذه الأسباب جميعاً يرجع السر في قوة بريطانيا وسبقها في العصر الحديث . وهناك من غير شك أسباب أخرى — سياسية وتاريخية على وجه الخصوص — لم نخطبها ولم نشر إليها في هذا المقال . ولكن ما أتينا به من المقومات الطبيعية والبشرية يكفي لنتفهم منه ن ما تجمّع لبريطانيا من القوة لم يأت نتيجة المصادفة ، وإنما هو قد ترتب على توافر عدد من العوامل والأسباب التي كانت تعمل متداخلة متكاملة ، والتي أتم بعضها بعضا حتى استطاعت هذه الجزر الصغيرة وسكانها المحدثون في المدينة والمحدودون في العدد أن يكتونوا أمة قوية غنية ، قادرة على أن تسبق غيرها من الأمم الحديثة في ميادين العمل والجهاد والتوسع والاستعمار ، بل قادرة أن تتخذ لنفسها مركز القيادة في ميدان السيطرة العالمية ، فأنشأت إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس ، جمعت فيها بين أهل الشرق وأهل الغرب ، وبين أهل الجنوب وأهل الشمال ، على نحو لم يسبق له نظير في التاريخ . وقد ثبتت تلك الإمبراطورية لكثير من المحن والأزمات ؛ بل كانت في الغالب تخرج من أزماتها أقوى مما دخلت أو هي على الأقل كان هذا شأنها فيما مر بها من أزمات سابقة ، حتى جاءت هذه الحرب الأخيرة بأعقابها وتأنجها البعيدة التي لا يعلم مداها وأثرها النهائي غير الله !

ولكن ما لنا نتحفظ إلى هذا الحد ولا نحاول أن نستشف المستقبل في موضوع نسعى الآن إلى أن نلججه من الناحية العلمية الخالصة ؟ الآن هذا المستقبل مثل بالاحتمالات التي لا ضابط لها ولا حاكم ؟ أم لأن هناك عوامل جديدة لا ترتبط بقوة بريطانيا ، وإنما تتصل بمصادر أخرى للقوى في جهات أخرى من العالم ؟ أم لأن مبدأ السيطرة العالمية وقيامه على أساس التحكم في اتصالات أوروبا بالخارج لم يعد هو الحاكم الوحيد في توازن القوى الدولية ؟ أم لأن الإنسانية أخذت تسير إلى غاية جديدة متملسة طرقاً جديدة غير ما اعتادت أن تسير فيه خلال هذه الأجيال الأخيرة ؟ أم لأن بريطانيا التي كان

لها السبق في ميدان السيطرة العالمية على غيرها من امم أوروبا قد بدأت تفقد تلك الميزة، فلحقت بها أم جديدة بعضها في أوروبا وبعضها في خارجها؛ ولا بد من أن تلاحق الأمم بعضها بعضاً، وأن يداول الله الأيام بين الناس على نحو جديد لن يكشف عن نتيجه غير الزمن؟ قد تكون كل هذه الاحتمالات من الحقيقة في شيء يسير أو خطير؛ ولكن الشيء الذي نستطيع أن نستبينه — ومن الخير لنا أن نستبينه واضحاً جلياً — هو أن الاتجاهات الحديثة في اتصالات العالم، وفي علاقات الدول والأمم بعضها ببعض، قد أخذت تتبلور خلال هذا الجيل الأخير، حتى اتخذت صورتها الواضحة مع نهاية هذه الحرب الأخيرة. وكل من يدرس النضال الحديث بين الأمم في صورته الجديدة، التي برزت للناس في أواخر مراحل الحرب، يدرك في غير عناء أن الجماعات البشرية سائرة نحو التكتل، وأن مستقبل القوة معقود لوائه للأقوياء الكثيرين في العدد والأغنياء في الموارد؛ ولم يعد هناك في الحروب الكبرى التي توجه مصائر العالم شيء اسمه أم صغيرة أو أم متوسطة، وإنما هناك أم كبيرة تلتف من حولها أم صغيرة وتتذبذب بينها أم متوسطة أو شه كبيرة. وقد خرجنا من هذه الحرب المنتهية — إلى جانب إقرار كيان الإمبراطورية البريطانية وتوسيع رقعتها في بعض الأطراف — بأمتين كبيرتين، ليس من اليسير حصر مواردها الظاهرة والكامنة، هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي؛ وبأمة أخرى قد يبدو شأنها خاملاً في الوقت الحاضر، ولكن المستقبل كفيل بالكشف عن قوتها الهائلة في المال والرجال، هي الصين التي تحتل مساحة تناهز مساحة أوروبا بأسرها وتزيد عليها في عدد السكان؛ ثم بأمة أخرى عريقة في المدنية والثقافة هي الأمة الفرنسية، ولكن لن تبلغ، هي وإمبراطوريتها، من القوة المادية بعض ما بلغ الآخرون. على أن الشيء الذي لا يخلو من مغزى حقيقي هو أن بعض فلاسفة الوقت الحاضر وساسته الراسخين يرون بحق أن بريطانيا إذا انفردت عن إمبراطوريتها، وتخلت عن سندها من الأمم الأخرى — أو تخلت عنها ذلك السند — فإنها لن تعدو أن تكون قوة متوسطة وأمة من المرتبة الثانية بين أمم المستقبل. ويظهر أن حلفاءنا البريطانيين، رغم كل ما يقال من بطء إداراتهم وجنوحهم إلى التسوية بالوقت في كثير من الأشياء، كانوا أسرع الناس إلى إدراك هذه الحقيقة، وإلى

العمل على تلافى مصدر الضعف الجديد الذى يهدد كياناتهم الدولى والإمبراطورى . وإذا كان لنا أن نقرأ النتائج من المقدمات ، فإن ساسة بريطانيا يحاولون الآن رسم الخطة وتلمس الطريق إلى استكمال أسباب قوتهم المهددة ؛ فالإمبراطورية إن أرادت أن تقف أمام منافسيها فى المستقبل ، ينبغى أن تزيد من أسباب الترابط بين أجزائها ، وينبغى فوق ذلك أن تعمل على تكتل القوى فى ماخذ الإمبراطورية ومناطق الخطر فيها . وقد يكون الشرق الأدنى أو الأوسط مكن الخطر الأكبر فى بناء الإمبراطورية . وبريطانيا محتاجة فى هذه المنطقة إلى أن تجمع من القوى وأن تكسب من الصداقات أكبر قدر تستطيع أن تجعله الى جانبها . ومهما أظهر ساستها فى الوقف الحاضر من ألوان الصلف والاعتزاز ، ومهما تأثرت أقوالهم وأفعالهم بما يستشعرون فى هذه اللحظة من قوة مصدرها هذا النصر العظيم الذى أحرزته الإمبراطورية وحلفاؤها بأعلى ثمن ، فلا شك أنهم مدركون أن احتياج بريطانيا ، بحكم ما تمحضت عنه الحرب ، إلى الأمم الصغيرة والمتوسطة أكبر من احتياج تلك الأمم إليها . ولئن قيل فى وقت مضى إن قوة بريطانيا ضرورية للدفاع عن الشرق وأبوابه ومسالكه ، فإن من الحق أن يقال فى المستقبل إن صداقة هذا الشرق الزم لسلامة بريطانيا وإمبراطوريتها من أية قوة تستطيع أن تخف بها إلى ميادينه . وليس من شك فى أن بريطانيا وساستها ، بل قادتها العسكريين أنفسهم يدركون هذه الحقيقة تمام الإدراك ، إن لم يمتدوا بها فى العلانية . وحقيق باهل هذا الشرق وقادته أن يدركوا هذه الحقيقة على وجهها الصحيح ، قبل أن يحددوا موقفهم ، وقبل أن يرسموا خطتهم ، وينظموا علاقات بلادهم الدولية فى المستقبل . وقد يكون من الحق علينا لأنفسنا وللإنسانية جمعاء أن نعرف قدر أنفسنا وقد عرفه الناس ! بل قد يكون من الخير لنا وللإنسانية جمعاء — ونحن نعيش فى مهب العاصفة بين قوى العالم الجبارة — أن ترسم خطانا فى نور وتبصر ، وأن تتلمس سبيلنا إلى التعاون الدولى فى حزم واستقلال !